قال – رحمه الله تعالى –: **[٢٥٩ – عن عروة بن الزبير – رحمه الله – قال: سئل أسامة بن زيد – رضي الله عنهما – وأنا جالس: كيف كان رسول الله ﷺ يسير حين دفع؟ قال: كان يسير العَنَق، فإذا وجد فجوة نص.**

العنق: انبساط السير، والنص: فوق ذلك].

حديث شريف يدل على فضل أصحاب رسول الله ﷺ وحبهم لسنته وحفظهم لهديه، حتى إنهم – رضي الله عنهم وأرضاهم – حفظوا كيف كان يسير – عليه الصلاة والسلام – وكيف كانت تسير دابته، فانظر – رحمك الله – كيف حفظ الله دينه وكيف قيض لهذه الأمة صحابة لنبيه – رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين – رمقوا وشاهدوا وحفظوا للأمة كل صغير وكبير من هدي رسول الله ﷺ حتى الصفة التي كان يسير بها بعيره كانوا يراقبونه فيها، وهذا يدل على الحفظ وعلى الدقة والرعاية والعناية. فنسأل الله العظيم أن يجزيهم عنا خير ما جزى أصحاب نبي عن صحبتهم، فقال: **[كيف كان النبي ﷺ يسير]** أي حينما دفع من عرفات إلى مزدلفة، وكان – عليه الصلاة والسلام – حينما حج حجة الوداع كثر عليه الناس وأتى الناس من مشارق الأرض ومغاربها كلهم يسألون: كيف يحج رسول الله ﷺ؟ وكانت هي الحجة الوحيدة التي بين فيها رسول الله ﷺ ما أجمله القرآن من أحكام الحج والعمرة، فكانوا قرابة المئة ألف وقيل: إنهم أكثر من مئة ألف حتى قال بعضهم: إنهم مئة وعشرون ألفاً، وقيل دون ذلك، كلهم كانوا مع النبي ﷺ. قال أنس – رضي الله عنه وأرضاه –: "كنت أنظر أمامي فأرى الناس مد البصر، وأنظر ورائي فأرى الناس مد البصر، وأنظر عن يميني فأرى الناس مد البصر، وأنظر عن شمالي فأرى الناس مد البصر، وكلهم يقول: كيف يفعل رسول الله ﷺ؟" فهذه الأمة التي اجتمعت معه – عليه الصلاة والسلام – ازدحمت عليه، فكان – عليه الصلاة والسلام – حينما دفع من عرفات ثبت من سنته أنه انتظر إلى غروب الشمس فلما غربت الشمس انتظر حتى ذهبت الصفرة، والصفرة تعقب مغيب الشمس بقليل وتأخذ إلى ثلاث أربع دقائق تقريباً على اختلاف الزمان صيفاً وشتاءً، فانتظر – عليه الصلاة والسلام – حتى ذهبت الصفرة ثم دفع –

عليه الصلاة والسلام –، ومن هنا أخذ أهل العلم أن السنة أن لا يدفع الحاج إلا بعد ذهاب الصفرة، ثم إنه – عليه الصلاة والسلام – حينما دفع لم يصل المغرب بعرفات وإنما أخرها إلى مزدلفة، ولما سأله أسامة – رضي الله عنه وأرضاه –: الصلاة يا رسول الله؟ قال: (الصلاة أمامك) أي: في مزدلفة. ومن هنا نص أهل العلم – رحمهم الله – على أنه ليس من السنة أن يصلي الحاج المغرب بعرفات، إلا أنه لو حدثت ظروف كالرفقة الكبيرة والضعفة والعجزة الذين قد يتأخرون أو تأتيهم ظروف يصعب عليهم الخروج من عرفات إلى مزدلفة فهل يبادروا بصلاة المغرب في عرفات أو يؤخروها؟ والجواب: أن السنة حتى ولو تأخروا أن يؤخروا المغرب والعشاء إلى أن يصلوا إلى مزدلفة، وهذا لقول رسول الله ﷺ: (الصلاة أمامك). قال بعض العلماء: في هذا دليل على أنها تصلى بذلك المكان لا تصلى بعرفات ولا تصلى في الطريق بين عرفات ومزدلفة إلا إذا خشي خروج الوقت، فإذا خشي خروج الوقت فهذا شيء آخر مثل ما يقع في الزحام الشديد فيخرج متأخراً ثم بعد ذلك يضيق عليه الطريق حتى يقرب بزوغ الفجر فحينئذ يصلي إدراكاً للوقت، فخرج عليه الصلاة والسلام من عرفات إلى مزدلفة وعليه السكينة – صلوات ربي وسلامه عليه –، خرج خاشعاً متخشعاً متذللاً لربه متبذلاً يسأل ربه من عظيم فضله وإحسانه، وكان يقول للناس: (أيها الناس، السكينة السكينة) يأمرهم أن يأخذوا بالسكينة؛ لأنها ساعات رحمة وساعات ذكر لله ﷻ، وربما مع الزحام يضطر الإنسان إلى حصول المضايقة منه لغيره أو مضايقة الغير له فأوصى رسول الله ﷺ الحاج أن يلتزم أدب الحج من السكينة والهدوء؛ لأنه غالباً ما يقع الحج بزحام الناس فالتعجل يحدث الضرر على الإنسان وعلى غيره، فصاح بالناس: (أيها الناس، السكينة السكينة) وبين أن الخير في ذلك اليوم ليس لمن أسرع ركبه وليس لمن تعجل في مسيره، إنما الخير كل الخير لمن تقبل الله طاعته، فالعبرة كل العبرة أن يكون الإنسان مقبولاً عند الله ﷻ، وأن يكون مرحوماً من الله ﷻ ولو كان في آخر الركب ولو سار في آخر القوم فإنه إذا قدمه ربه فهو المقدَّم، وإذا فضله ربه فهو المفضل بتفضيل الله ﷻ، فليس البر بسرعة السير وإنما البر بمرضاة الله – جل وعلا – وقبوله سبحانه. فلما أفاض عليه الصلاة والسلام كان معه أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ وابن حبه – رضي الله عنه وعن أبيه –

كان رديفاً مع رسول الله ﷺ، وانظر إلى عظمة الإسلام وكماله وجلاله وانظر إلى كرامة هذا النبي ﷺ وسموه حينما نزع من قلوب الناس العصبية والنظر إلى الألوان وإلى الأنساب، فأخذ مولى من الموالي وأركبه رديفه في ذلك اليوم المشهود؛ حتى يضع نعرات الناس والتفاخر بالأحساب والأنساب تحت قدمه – صلوات الله وسلامه عليه وبركاته عليه إلى يوم الدين – في ذلك اليوم مع أنه كان معه عمه وكان معه أبناء عمه وكانت معه عشيرته وقرابته ومع ذلك أركب مولىً رديفاً له – صلوات الله وسلامه عليه –، فنعم الراكب – رضي الله عنه وأرضاه – وشرف وأي شرف أن يكون وراء رسول الله ﷺ، فخرج – بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه – ودخل في الشعب الذي بين عرفات ومزدلفة وبال فيه – عليه الصلاة والسلام – ثم توضأ، يقول أسامة ﷺ: "وضوءً خفيفاً" وصب له الوضوء، وانظر أيضاً إلى دقة أصحاب رسول الله ﷺ حتى إنهم حفظوا وضوءه في تلك الليلة أنه كان وضوءً خفيفاً، أي أنه لم يجعله مسبغاً ثلاث مرات ولم يتأن ولم يترسل، وهذا يدل على النظر للأحوال وأن الإنسان إذا جاءه أمر أهم من أمر ربما ترك المستحبات في الأمر التي يمكن تعجيله وقدم المستحبات في الأمر المفضل الذي سيكون له التأجيل، ومن أمثلة ذلك: إذا دخل المصلي يوم الجمعة والإمام يخطب يصلي ركعتين تحية المسجد، يقول عليه الصلاة والسلام: (وليتجوز فيهما). فتوضأ – عليه الصلاة والسلام – وضوءً خفيفاً ثم ركب ناقته القصواء – عليه الصلاة والسلام – ومعه أسامة ﷺ حتى دخل مزدلفة، فأمر بلالاً فأذن للصلاة ثم أمره فأقام فصلى المغرب، ثم تركهم بقدر ما ينيخ الرجل رحله ثم أمره فأقام لصلاة العشاء فصلى العشاء جمعاً وقصراً بالمزدلفة، ولم يسبح بينهما يقول ابن عمر – كما في الصحيحين –: "ولم يسبح بينهما ولا على إثرهما". "لم يسبح بينهما" يعني: لم يصل راتبة المغرب؛ لأن المسافر لا يصلي الرواتب، فلم يسبح يعني لم يصل وليس المراد لم يسبح: لم يقل الأذكار، وإنما تُطلق السبحة على الصلاة، ولذلك قالوا: "سبحة الضحى" يعني: ركعتا الضحى، فلم يسبح عليه الصلاة والسلام يعني: لم يصل بين الأولى والثانية، ومن هنا قال بعض العلماء: إذا جمع المسافر بين الصلاتين فإنه لا يصلي بينهما وإنما يجعل الثانية عقيب الأولى، فصلى – عليه الصلاة والسلام – المغرب.

فذكر في هذا الحديث أن النبي ﷺ **[كان يسير العنق، فإذا وجد فجوة نص]** و"العنق": ضرب من سير الإبل ومنه الإرقال والإخطار، فالعنق ضرب من سير الإبل فيه نوع من الانبساط، وهذا يدل على أنه – عليه الصلاة والسلام – كان يحرص على الوقت وكان يحرص على المبادرة بدليل قوله: **[فإذا وجد فجوة نص]** فكان – عليه الصلاة والسلام – حريصاً على المبادرة وحريصاً على المضي – صلوات الله وسلامه عليه – إلى المشعر؛ حتى يفعل به ما يفعله من الجمع بين الصلاتين.